المحاضرة العاشرة:

وسائل الاتصال والتكنولوجيات الحديثة وسيرورة التغير الاجتماعي إسقاطات واقعية

**-أولا: التحول الرقمي وثورة الأنترنيت:**

يعتبر الاتّصال الرّقميّ بوسائله المختلفة أحد البدائل والاختيارات المطروحة أمام جمهور وسائل الإعلام لإشباع حاجاته بناءً على التّوقّعات الّتي يرسمها باختياراته. إنّ الاتّصال الرّقمي يتصدّر بحوث الاستخدامات والاشباعات وتلك لسهولة تطبيق الفروض الخاصّة بالنّظريّة، فإن كانت فرضيّات النّظريّة تشير إلى الجمهور النّشط، فإنّ فئات جمهور مستخدمي الشّبكة أكثر نشاطًا ومشاركةً في العمليّة الاتّصاليّة بتأثير التّفاعليّة.

وهناك اتجاهين أساسيين يحددان مسارات التفاعل والاستخدام وهما:

**-الأول:** الاتّصال بالغير من خلال الوسائل المتاحة على شبكة الانترنت، سواءً كان المستخدم مرسلاً أم مستقبلاً.

**- الثاني:** التجول بين المواقع المتعدّدة للشّبكة لتلبية الحاجات المستهدفة والّتي يتصدّرها المعرفية سواءً من خلال المواقع الإعلاميّة، التّعليميّة، المواقع العلميّة أو المكتبات الرّقميّة، بالإضافة إلى الحاجة للتّسلية والتّرفيه أو الحاجة إلى الإعلان والتّسويق...سواءً كانت مدفوعة أو مجانية.

كما يمكن المقارنة في مجال الاستخدام بين الوسائل الإعلاميّة التّقليديّة وتصنيفات محتواها وبين فئات المواقع وتصنيفاتها. ويفرض استخدام الانترنت والتّجوّل بين مواقعها، دراسة مشكلات الاستخدام وقدرة المستخدم على تجاوزها.

ونظرًا لوجود"**الفجوة المعرفية**"بين الفئات الاجتماعيّة من جهة و"**الفجوة الرقمية**" بين العالم المتقدّم والمتخلّف، من جهةٍ أخرى فإنّه من المتوقّع وجود تباينٍ في كثافة الاستخدام وعاداته و أنماطه السّلوكيّة.

ففي الاتّصال الرّقميّ التّفاعليّ،كثافة الاستخدام ترتبط أكثر بتبادل الأدوار والتّفاعليّة في تبادل الآراء والبحث عن الأدلّة المعارضة من خلال فترة الاستخدام، وبالتّالي فإنّ كثافة الاستخدام قد تشير إلى رفض المعاني أو عدم التّأييد في كثير من الأحوال.[[1]](#footnote-1)

وتتمثّل أهمّ الاشباعات الّتي تتحقّق لدى الجمهور المستخدم لشبكة الانترنت في:

-استكشاف ما هو جديدٌ في العالم الخارجيّ، حيث كشفت إحدى الدّراسات الميدانيّة عام 1995م، أنّ 90% من مستخدمي الانترنت يكتفون بعمليّات التّصفّح واستعراض واكتشاف المواقع المختلفة والجديدة عليهم.كما أنّهم قد يصادفون ما يشبع حاجاتهم المعرفيّة.

**-البحث عن المعلومات**:حيث أظهرت إحدى الدّراسات أنّ 73% من المستخدمين يبحثون عن المعلومات في مختلف مجالات الحياة.

**-الاستمتاع والتّسلية**:حيث تبيّن أنّ 57 % من المستخدمين يساعدهم وجود العديد من المواقع الترفيهية الّتي تعرض مواد فكاهية أو مسابقاتٍ أو موادّ خفيفة للتّسلية والتّرفيه.

**-الاتّصال بالآخرين**:إذ توجد شريحةٌ كبيرةٌ تستخدم البريد الالكترونيّ ومجموعات الأخبار ومجموعات المناقشة وغرف الدّردشة للدّخول في مختلف أشكال الاتّصال(من واحدٍ إلى واحد، من واحد إلى مجموعة، من مجموعة إلى مجموعة) وفي مختلف المجالات والأنشطة.

**-تحقيق الوجود الافتراضيّ**:وهو من الإشباعات الّتي تحقّقها الانترنت ويعني ذلك بشعور المستخدم بالتّواجد في بيئةٍ افتراضيّةٍ يتيحها الكمبيوتر تختلف عن البيئة الماديّة الفعليّة المتواجد بها، وهناك عدة جوانب لمفهوم الحضور أو الوجود الافتراضي، منها ما يتعلّق بخبرة نقل الواقع إلى المستخدم في مكانه، ومنها ما يتعلّق بخبرة الانتقال أو تبادل الأماكن.[[2]](#footnote-2)

وعلى غرار مختلف هذه الاشباعات هناك مجموعة من المخاطر جراء سوء استخدام الأفراد من جهة، ومن جهة ثانية الحملات المتعمدة لاستهداف قيم وثقافات وخصوصيات المجتمعات لاسيما العربية والإسلامية منها، ومن بين أهمها مايلي:

* **المخاطر العقديّة**:حيث توجد بها مواقع البدع والخرافات والفرق الضّالّة، ومواقع التّشكيك في العقيدة الإسلاميّة، وإثارة الشّبهات والإساءة للإسلام ومواقع التّنصير.
* **المخاطر الأخلاقيّة**: مثل المواقع الإباحيّة، ومواقع القمار والخمور حيث يعجّ عالم الانترنت بالعديد من مواقع القمار الّتي أصبحت أكثر إغراءً بتوفيرها على المقامرين عناء التّنقّل إليها وبضماناتها لسريّةٍ أكبر في التّفاعل غير القانونيّ أو غير الاجتماعيّ.
* **المخاطر الاجتماعيّة**: مثل مواقع المخدّرات ومواقع تعليم الانتحار حيث أصبحت الانترنت سوقًا مغريةً للباحث عن الممنوعات من المنحرفين والخارجين عن القانون. فهي تتيح الفرصة لهم أن يكتشفوا كيفيّة استعمالها بصيغتها الكيمياويّة المختلفة والتّجهيزات اللاّزمة لها. وأن يطّلعوا على أسعارها وذلك عبر مئات المواقع المنتشرة في الكثير من دول العالم.
* **المخاطر الاقتصاديّة**: مثل غسيل الأموال عبر الشّبكة وسرقة الحسابات وبطاقات الائتمان.
* **المخاطر الأمنيّة**: مثل التّزوير وسرقة المعلومات والتّجسّس و الاحتيال والنّصب.[[3]](#footnote-3)، كما يعدّ الإدمان على الانترنت من أهمّ السّلبيّات حيث يعرّف بعض العلماء الإدمان بأنّه "عدم قدرة الإنسان الاستغناء عن شيءٍ ما،بصرف النّظر عن هذا الشّيء طالما استوفى بقيّة شروط الإدمان من حاجةٍ إلى المزيد من هذا الشّيء بشكلٍ مستمرٍّ حتّى يشبع حاجته حيث يحرم منها.

هذا ويؤكد البعض أنّ ثورة التّقنيّات الرّقميّة ستؤدّي حتمًا إلى تحوّلاتٍ في العالم الّذي نعيش فيه، وأنّ أهمّ تلك التّحوّلات سيكون في محتوى المدن، فكلّ شئٍ في العالم الرّقميّ الجديد سيكون مختلفًا، كيف نعمل، وكيف نتفاعل في علاقاتنا الاجتماعيّة، وكيف نستهلك البضائع والخدمات... حتّى كيف نعتني بصحّتنا. هذا وستكون لتلك التّحوّلات تأثيرات قد تكون غير منظورة الآن، ولكنّها على الأقلّ ستعمل على التّغيير الجذريّ لطريقة أداء المدن لوظائفها، من خلال علاقات الإحلال والتّكامل التي تحدث من جرّاء الثورة الرّقميّة بين الفراغات الحضريّة المعروفة، وبين العالم الجديد من خلال الاتّصالات على الانترنت.[[4]](#footnote-4)

**-ثانيا: شبكات التواصل الاجتماعي وتمظهرات إفرازاتها الاجتماعية:**

لقد بات واضحًا أنّ الاختراق الثّقافيّ خاصّةً في ظلّ العولمة بآليّاتها المعاصرة، يعمل على تهديد منظومة القيم الأصليّة، ويشكّل نوعًا من الازدواجيّة الثّقافيّة الّتي تجتمع فيها تناقضات الأصالة المعاصرة. ممّا يؤدّي إلى تهميش أو تغيير ملامح الثّقافة الوطنيّة.

ففي هذا العصر المتزاحم بالتّغيّرات العالميّة المعاصرة نجد أنفسنا بصدد معارك كبرى قيميّة وأيديولوجيّة وسياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة، من الصّعب التّنبّؤ بنتائجها النّهائيّة. لأنّ المسألة تتوقّف على قدرة الاتّجاه المضادّ على مواجهة الانتقال من القيم الرّوحيّة إلى القيم الماديّة، ومن القيم الماديّة إلى القيم ما بعد الماديّة. والانتقال من المعرفة إلى الحداثة، ومن الحداثة إلى ما بعد الحداثة.[[5]](#footnote-5) ومن بين تجليات هذه الإفرازات في الجوانب الاجتماعية والثقافية الفكرية مايلي:

**1-الجانب الاجتماعي :**

تتحدّث الأدبيّات عن تغيّرات واسعةٍ وكبيرةٍ في البنى الاجتماعيّة للكثير من المجتمعات الإنسانيّة ومنها المجتمع العربيّ، حيث أنّ التّغيّرات العالميّة الّتي عاشها العالم المعاصر، عكست نفسها بصورةٍ أو بأخرى على هذه المجتمعات، ممّا أحدث نوعًا من التّغيير والخلخلة في هذه المجتمعات.

وفي هذا المضمار يتحدّث العمر معن عن الآثار الاجتماعيّة للتّغيّرات العالميّة المعاصرة، حيث يؤكّد على أنّها "ولّدت تحوّلات وتغيّرات وتغييرات في النّسيج الاجتماعيّ ممّا يعمل على عدم خضوعه للضّوابط المعياريّة والقيميّة الّتي أحبكته عبر الزّمن، إلّا أنّ هذا النّسيج لا يبقى على ما هو عليه بل يتطوّر بالتّدريج من خلال الأجيال المتعاقبة ومن خلال ما يتأثّر به من مؤثّراتٍ خارجيّةٍ أو داخليّةٍ.[[6]](#footnote-6)

هذا وتعد مؤسسة الأسرة من أهم الأنساق الاجتماعية في النسيج المؤسساتي المجتمعي، وذلك لما تؤديه من وظائف هامة في المجتمع، حيث تقع على عاتقها عملية الإعداد والتنشئة الاجتماعية للأفراد وإذا فـإذا كانت بالأمس القريب قد أدت أدوارا رياديــة في غرس القيم والمعايير والاتجاهات، والحفاظ على توريث العادات والتقاليد ونقلها من جيل إلى آخر، فإنها اليوم بفعل التغيرات الحاصلة جراء مجموعة من الأسباب المختلفة أهمها : موجة العولمة الجارفة والطفرة في مختلف وسائل والتكنولوجيات الحديثة والتي كان لها بالغ الأثر على وظيفة هذا النسق، حيث فسحت المجال إلى إحلال ثقافة قيمية شرسة دخيلة لا تعترف بمنطق الخصوصية للموروث الثقافي والقيمي للمجتمعات.

ولما كان المجتمع الجزائري ليس بمعزل عن هذا العالم، فإنه كان عرضة لهذه الهيمنة الثقافية الدخيلة على حساب منظومته القيمية الأصيلة؛ ويتجلى كل ذلك من خلال بروز أنماط وسلوكات توحي بالإغتراب القيمي على المستوى الفردي والاجتماعي، الشيئ الذي ولد صراعا قيميا بات يهدد الموروث الثقافي والحضاري للأفراد ومنه للكيان المجتمعي على الإطلاق، وتزداد تجليات ودلالات كل هذا يوما بعد يوم.

ولعل أبرز أثر لهذه الوسائط الإدمان المفرط لأفراد المجتمع على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة؛ تزايد معدلات الاستخدام اليومي للأفراد بشكل أثر على طبيعة التفاعل الإنساني البيني المباشر، وهو ما أدى إلى تراجع وانحسار لزمن للتفاعل العلائقي الإنساني الواقعي مما ولد ما أصبح يعرف بالعمر الالكتروني في مقابل العمر الاجتماعي الإنساني، ومنه تحول فعل التنشئة من الاجتماعية إلى التنشئة الالكترونية.وتتحول بذلك هذه المؤسسة إلى تجمع للأفراد لتسمى بالأسرة المجالية الفندقية.

ونعتقد أن كل هذه التّحوّلات عملت على إضعاف بعض الأدوار الّتي كانت تقوم بها الأسرة في عمليّة التّنشئة. وقيام مؤسّساتٍ جديدةٍ بهذا الدّور، حيث استطاعت اجتذاب الأجيال الجديدة لها بما تحتويه من جاذبيّةٍ وإثارةٍ وتشويقٍ كالمحطّات الفضائيّة والانترنت ومختلف مواقع التواصل الاجتماعي، حيث تبثّ هذه الوسائل على مدار السّاعة ملايين الصّور والرّموز بما تحتويه من توجيهات سلوكيّة وقيميّة.

ويمكن تلخيص أهمّ الآثار الّتي أحدثتها التّغيّرات العالميّة المعاصرة في المجال الاجتماعيّ على فيمايلي:[[7]](#footnote-7)

* تراجع دور الأسرة في التّنشئة الاجتماعيّة لصالح الإعلام والتّقنيّات الحديثة، كالفضائيّات والحاسوب وشبكة الانترنت. لتصبح تنشئة الكترونية بدل اجتماعية، كما تراجع الزمن التفاعل الإنساني لصالح التفاعل الالكتروني، وأصبح بذلك العمر الالكتروني بديلا للعمر الزمني الإنساني؛ لتتحول الأسرة بفعل هذه التأثيرات إلى أسر مجالية صامتة.
* أصبحت معايير الصّداقة قائمةً على النّفعيّة والمصالح المتبادلة.
* إقبال الشّباب المتزايد على المواقع والمحطّات الّتي تبثّ الجنس، ممّا أدّى إلى أزمةٍ أخلاقيّةٍ وصراعاتٍ قيميّةٍ لديهم.
* الاغتراب عن المجتمع المحليّ وقضاياه، والأحداث الجارية فيه.
* التحوّل من الانتماء الجمعيّ إلى الفرديّة المنجزة(أنت وما تصنعه بحياتك وما تنجزه في مستقبلك)، وتحول بذلك المجتمع الى تجمع للأفراد على حد تعبير زيغمونت باومان.

**2-الجانب الفكري:**

تتّسم التّأثيرات الثّقافيّة في هذا العصر بالانتقال الحرّ للأفكار والمعلومات عن طريق مختلف وسائل الإعلام في تشكيل وعي الجماهير، ممّا ساهم في انفتاح الثّقافات العالميّة المختلفة، وتأثّر بعضها بالبعض الآخر وتسهيل الاستفادة من التّجارب الثّقافيّة العالميّة وشيوع مفاهيم الحوار لمناقشة القضايا العالميّة المشتركة والّتي أصبحت أرضيّة لبروز قيمٍ إنسانيّة عالميّة مشتركة تتخطّى الخصوصيّات. وفي ظلّ التّغيّرات العالميّة المعاصرة ولاسيما العولمة الثّقافيّة ستبرز بوضوحٍ مسألة الهويّة والمواطنة العالميّة الّتي ربّما ستحلّ تدريجيّا وربّما على المدى البعيد محلّ الولاءات والانتماءات الوطنيّة.[[8]](#footnote-8)**،** وهذا ما سيهدد تماسك المجتمعات وأفول عصر الخصوصية الثقافية والحضارية.

**-ثالثا: التحول نحو مجتمع الاستهلاك:**

بعد التّغيّرات والتّطوّرات التّقنيّة والالكترونيّة وما أفرزته من أحداثٍ وظواهر ومشاكل تبزغ ثقافةٌ تركّز على المواضيع التّالية وهي في مجملها وجوهرها استهلاكيّةٌ وليست إنتاجيّةٌ مثل[[9]](#footnote-9):

* التّركيز على الجسد وخاصّةً جسد المرأة الجميلة وتحويله إلى رمزٍ أساسيٍّ تجري الاستفادة التّجارية منه عن طريق استغلاله إلى الحدّ الأقصى كمادّةٍ للثّقافة الاستهلاكيّة المباشرة ولإثارة الغرائز الجنسيّة للتّرويج لأنواع معينةٍ من السّلع الاستهلاكيّة وغيرها.
* الدّعوة إلى ثقافةٍ غير ملتزمةٍ إلاّ بالذّات الإنسانيّة الفرديّة مع التّشديد على أنّ هذه الذّات هي أوّلاً جسدٌ لا غير.
* تشجيع النّزعة الشّهوانيّة لدى الإنسان الفرد وما ينطوي عليه من مقوّلاتٍ تمجّد اللذّة الجسديّة والمتعة تحت ستار أنّ الحياة قصيرةٌ جدًّا وهي مجموعة لحظاتٍ آنيّةٍ من الشّهوات الجنسيّة والمتعة.
* إنتاج ثقافةٍ آنيّةٍ معدّةٍ للاستهلاك اليوميّ وترفض كلّ تصنيفٍ ثقافيٍّ لها لأنّها أُنتجت أساسًا لهدف إمتاع الجماهير والتّرويح عنها بعد العمل اليوميّ المضني.
* رفض مقولة النّخبويّة في الثّقافة والفكر والفنّ وحتى السّخرية منها دون أن توفّر تلك السّخرية أيًّا من الرّموز الثّقافيّة والفنيّة العالميّة.
* الإغراق في تفاصيل الحياة اليوميّة ورفض كلّ مرجعيّةٍ فنيّة أو ثقافيّةٍ أو جماليّةٍ عامّةٍ. أوجدت الثّقافة الاستهلاكيّة حاجةً ماسّةً إلى وسطاء لها أو مقاولين ثقافيّين أو متعهدي الحفلات الفنيّة والثقافيّة من ذوي الخبرة في مجال نشر الثّقافة الاستهلاكيّة.

**خاتمة:**

بعد استعراضنا لعناصر مادة الاتصال والتغير الاجتماعي، نخلص في الأخير إلى أن التغير الاجتماعي ظاهرة كونية وحتمية طبيعية، تمر بها جميع المجتمعات بصرف النظر عن خصوصياتها الثقافية والحضارية، غير أن وتيرة هذا الأخير تتباين من مجتمع لأخر ومن حقبة زمنية لأخر؛ وذلك بسبب الاختلاف في درجة التطور والإمكانات التي يحوزها كل مجتمع، فهناك مجتمعات لازالت تعيش في ماضي مجتمعات أخرى قطعت أشواطا كبيرة في مختلف مجالات التنمية ولها من الإمكانيات التكنولوجية والمادية ما جعلها ترسم استراتجيات التغيير الهادف والبناء، على عكس المجتمعات النامية التي لازالت لم تنفك من أسر التبعية الاقتصادية والتكنولوجية وحتى المعرفية العلمية للمجتمع الغربي، الشيء الذي أعاق مسارها التنموي وقوض مساعيها للنهوض وتحقيق التنمية الوطنية.

ولا يختلف اثنان في توصيف حالة التغير السريع والمتسارع التي يعرفها الواقع الراهن، نتاج التطور المذهل في مختلف الوسائط والتكنولوجيات الحديثة وما أفرزته هذه الأخيرة في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية، وفي الأدوار والعلاقات وفي بنى ووظائف الأنساق والمؤسسات.

الشيئ الذي يحتاج إلى دراسة وتشخيص واقعي لواقع هذا التحول، والبحث بالتالي عن أسبابه وتجلياته، وفق مقاربات نظرية حديثة، تتجاوز حدود ماهو تقليدي من أدوات وطروحات، مع مراعاة الخصوصيات السوسيو-ثقافية للمجتمعات، وهو ما أغفلته مختلف الطروحات النظرية المفسرة للتغير الاجتماعي.

1. إيناس قنيفة: اتّجاهات الطّلبة الجزائريّين نحو الإعلان على شبكة الانترنت، مذكّرة مكمّلة لنيل شهادة الماجستير، إشراف:إدريس بولكعيبات، قسم علوم الإعلام والاتّصال،كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة ،جامعة منتوري قسنطينة، قسنطينة-الجزائر، 2009-2010،ص52،53 [↑](#footnote-ref-1)
2. المرجع نفسه: ص51. [↑](#footnote-ref-2)
3. حسين عبد الجبار:اتّجاهات الإعلام الحديث والمعاصر، دار أسامة للنّشر والتّوزيع، ط1، عمّان-الأردن،2008، ص87،88 [↑](#footnote-ref-3)
4. محمّد أيمن عبد المجيد ضيف:"تخطيط المدينة العربية في الألفية الثالثة" نحو إعادة صياغة المعايير التخطيطية في ظل متغيرات العولمة،المؤتمر العلمي الثاني،المعايير التخطيطية للمدن العربية،هيئة المعماريين العرب،طرابلس،ليبيا،مايو2001،ص3. [↑](#footnote-ref-4)
5. ماجد الزيّود: الشّباب والقيم في عالمٍ متغيّرٍ، دار الشّروق للنّشر والتّوزيع، ط1، الأردن، 2006،ص-ص81-83. [↑](#footnote-ref-5)
6. العمر معن: قضايا اجتماعيّة معاصرة، دار الكتاب الجامعيّ، ط1، العين- الإمارات العربيّة المتّحدة، 2001،ص83. [↑](#footnote-ref-6)
7. ماجد الزيود: المرجع السابق،ص84،85. [↑](#footnote-ref-7)
8. مصطفى حجازي: علم النّفس العولمة-رؤى مستقبليّة في التّربية والتّنمية- شركة المطبوعات للتّوزيع والنّشر، ط1، بيروت، 2001 [↑](#footnote-ref-8)
9. فيذرستون مايك: الثّقافة الاستهلاكيّة والاتّجاهات الحديثة، ترجمة:محمّد عبد الله المطوّع، دار الفرابّي، بيروت،1991،ص-ص 7-9. [↑](#footnote-ref-9)